أهمية وفضل
طلب العلم

محمد حسن نور الدين إسماعيل

الألوكة
www.alukah.net

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أَهَمِّيَةُ وَفَضْلُ طَلَبِ الْعِلْمِ

إعداد

محمد حسن نور الدين إسماعيل

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك، له وأشهد أن محمدا - صلى الله عليه وسلم- هو عبده ورسوله، وبعد ، فهذه رسالة لطيفة أشرت فيها إلى أهمية العلم وفضله ، وأنواع العلوم ومراتبها وأقسامها ، انتقيتها من بعض كتب ورسائل ونصائح أهل العلم راجيًا أن ينتفع بها طلاب العلم حتى تشحذ الهمم وتصحح النية ويكون طالب العلم على بصيرة فى طريقه إلى الله تعالى وفى الدعوة إليه سبحانه ، فلا ريب أن العلم هو النور الذي يبدد ظلمات الجهل ، والمرء فى حاجة إليه فى كل مكان وزمان ، وبه يتعرف العبد على ربه وعلى ما أمره به وشرعه له فيسير فى هذه الدار وفق مراد الله تعالى إلى أن يلقاه ، وأسأل الله - عز وجل – أن يجعل هذه الرسالة خالصة لوجهه سبحانه وتعالى وفى ميزان الحسنات يوم لا ينفع مال ولا بنون ، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه ،

محمد حسن نور الدين إسماعيل

عفا الله عنه وعن والديه

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أهمية وفضل طلب العلم :

العلم فخر وشرف في الدنيا والآخرة، والعلم أفضل من المال، فهو سبيل إلى الخشية من الله تعالى.

قال صلى الله عليه وسلم (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين) متفق عليه ، فإذا رأيت نفسك تتجه إلى الفقه، تتجه إلى العلم، تتجه إلى فهم الكتاب والسنة، فاعلم أنك ممن أراد الله بهم خيراً (فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر) صحيح أبي داود

وقال (فَضْلُ العالم على العابد كفضلِي على أدناكم، وإن الله عز وجل وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في جُحْرِها، وحتى الحوت لَيُصَلُّون على مُعَلِّمِ الناس الخير) صحيح الجامع للألبانى

قال معاذ رضي الله عنه: (تعلَّموا العلمَ فإنَّ تعلُّمَهُ للهِ خشيةٌ وطلبَهُ عبادةٌ ومذاكرتَهُ تسبيحٌ والبحثَ عنهُ جهادٌ وتعليمَهُ لمن لا يعلمُهُ صدقةٌ وبذلَهُ لأهلِهِ قربةٌ لأنَّهُ معالمُ الحلالِ والحرامِ ومنارُ سبلِ أهلِ الجنَّةِ وهو الأنيسُ في الوَحشةِ والصاحبُ في الغربةِ والمحدِّثُ في الخلوةِ والدليلُ على السرَّاءِ والضرَّاءِ والسلاحُ على الأعداءِ والزَّينُ عند الأخلاءِ يرفعُ اللَّهُ بـه أقوامًا فيجعلُهم في الخيرِ قادةً وأئمَّةً تُقتصُّ آثارُهم ويُقتَدى بفعالِهم) الترغيب والترهيب للمنذرى

والعلم يؤدي إلى الخشية، وهذه من أعظم الفوائد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[فاطر:٢٨] ليس العلم بكثرة الرواية، ولكن العلم الخشية.

ورأس العلم تقوى الله حقاً وليس بأن يقال لقد رأُست

والعلم يدفع إلى الخشية من أن يسأل عنه صاحبه ولم يعمل به؛ ولذلك قال أبو الدرداء رضي الله عنه: [إنما أخشى أن يكون أول ما يسألني عنه ربي أن يقول لي: ماذا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عملت فيما علمت؟].

وقال بعض السلف: والله إني لأخشى ألا تبقى آية في كتاب الله آمرةٌ أو ناهية إلا جاءتني يوم القيامة، فتقول الآمرة بالخير: هل عملت به؟ وتقول الناهية عن الحرام: هل انتهيت عنه؟

ولذلك لابد إذا تعلمنا أن نطبق، فهي سلسلة متواصلة علم وعمل، تعلم وتطبيق، ولذلك فليست القضية حشو أذهان ولا حفظ معلومات، وإنما هي أثر حقيقي على الإنسان، ولذلك كان العلماء الربانيون مخبتين لله تعالى، يقومون له بالعبادة، يقومون الليل ويستغفرون بالأسحار، قال ابن القيم رحمه الله عن شيخ الإسلام : أنه كان إذا صلى الفجر يقعد في مصلاه يذكر الله حتى ترتفع الشمس جداً، وكان يقول: هذه غدوتي، وإذا لم أتغد سقطت قواي.

وقال الحسن رحمه الله: كان الرجل- يعني: من السلف- يطلب العلم، فلا يلبث إلا يسيراً حتى يرى أثر العلم في صلاته وخشوعه وكلامه وسمته؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾[الإسراء :١٠٧-١٠٩].

وأول علمٍ نريده، العلم بكتاب الله حفظاً وتلاوةً وتفسيراً، وبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم روايةً ودرايةً وتطبيقاً، والعناية بالفقه في دين الله، في العقيدة والعبادات والمعاملات وسواها، ليكون المسلم على بصيرةٍ من أمره، كذلكم العلم بلغة القرآن الكريم، اللغة العربية الفصحى، التي زهد فيها كثيرٌ من الناس، وزاحموها بغيرها من اللغات، ولا تزال تلقى حرباً لا هوادةَ فيها، في أساليبها وتراكيبها، وشعرها ونثرها من بعض الحاقدين عليها، لكن الله حافظها ما حفظ دينه وكتابه.

هذا وإن المسلمين اليوم لفي أمس الحاجة إلى أن يتكون منهم أجيال ملمة بالعلوم المهمة التي يحتاجها المسلمون، كعلم الطب والهندسة والاقتصاد ونحوها، ليتسنَّى لهم خدمة دينهم والاستغناء عن غيرهم.

ومما يجدر التنويه بشأنه: ضرورة أن يتعلم طائفةٌ من المسلمين العلوم العسكرية والآلات

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الحربية، ليتمكنوا من مواكبة العصر الذي يعيشونه، وليتسنى لهم الدفاع عن مقدساتهم وحرماتهم وعقيدتهم، كما أنه ينبغي أن يكون من بين المسلمين من يُعنى بالعلوم المهنية، والأعمال الفنية؛ ليكمل المسلمون أنفسهم من كل علمٍ فيه نفعهم، وصلاح أحوالهم.

أنواع العلوم ومراتبها وأقسامها وهى أربعة أسس، وهي :

الأساس الأول: أول العلم النية.

الأساس الثاني: منازل العلم.

الأساس الثالث: الأدب قبل الطلب.

الأساس الرابع: اقتران العلم بالعمل.

قال الحافظ ابن عبد البر في كتابه "جامع بيان العلم وفضله"، عرَّف العلم فقال: "حد العلم عند العلماء هو ما استيقنْتَه وتبينْتَه، وكل من استيقن شيئا وتبينه فقد علمه"، هذا هو ضابط وتعريف العلم، "حد العلم عند العلماء هو ما استيقنْتُه وتبينتُه، وكل من استيقن شيئا وتبينه فقد علمه".

والحافظ ابن عبد البر قسَّم العلوم إلى قسمين: فذكر في كتابه هذا أن العلوم تُقسم إلى قسمين:

القسم الأول: علم ضروري، والقسم الثاني: علم مُكتسَب.

أما العلم الضروري؛ فبيَّن أنه العلم الذي لا يُمكن للعالِم أن يُشكك نفسه فيه، وهو العلم الذي يُحَصَّلُ عن طريق الحس وعن طريق العقل، لا يمكن للإنسان أن يشكك نفسه في هذا العلم؛ مثل العلم الذي يدركه الإنسان عن طريق الحس والمشاهدة؛ كمعرفة الليل والنهار، ومعرفة الشمس والقمر، فهذا العلم ضروري.

أما العلم المكتسَب، وهو يحتاج إلى أدلة للحصول عليه، ويحتاج إلى نظرٍ وتأمُّل، ويدخل في

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هذا سائرُ العلوم، ثم هذا العلم المكتسب منه ما هو جلي وظاهر، ومنه ما هو خفي، فما كان أقرب إلى العلوم الضروريَّة فهو جلي، وما كان أبعد فهو خفي، بمعنى أن العلم المكتسب منه علوم واضحة جلية ظاهرة لكل الناس، ومنها دقائق العلم التي لا يدركها إلا الخاصة من طلاب العلم ويدركها العلماء المتمكنون وهم في ذلك درجة، هذا ما يتعلق بتقسيم العلوم وأنواع العلوم.

من العلماء من يقسم العلم إلى قسمين، فيقول: هناك علوم دنيوية، وهي العلوم التجريبية التي تتعلق بأمور الدنيا، ويدخل في هذا النوع علوم الطب، علوم الهندسة، علوم الفلك، وسائر العلوم التجريبية.

والقسم الثاني: هناك العلوم الدينية، التي لا يمكن أن تحصل إلا عن طريق الوحي، عن طريق الكتاب والسنة، فإن هذه العلوم مصدرها إلهيٌّ، وإن كانت هذه العلوم منها ما يتعلق بأمور الدنيا، ومنها ما يتعلق بأمور الآخرة، بمعنى أن العلوم الدينية جاءت بما يُصلح دُنيا الناس، وكذلك فيما يصلح آخرتهم، فالرسل جاؤوا بعلوم تتعلق بأحكام الدنيا، وتتعلق كذلك بأحكام الآخرة، فلما نقول علوم دينية لا يُفهم من ذلك أنه لا علاقةَ لها بالدنيا، بل ثمة أحكام دينية تتعلقُ بالأكل والشرب والنوم، وتتعلق بأحكام المعاملات، لكنْ هذه العلوم مصدرها الرئيسُ جاء عن طريق الوحي؛ أي عن طريق الكتاب والسنة، والسنة هي وحيٌ، ولذلك هذا العلم إذا أُطلق إذا قيل العلم والعلماء؛ فإنه ينصرف إلى أي نوع؟ مثلا في كتاب الله ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [المجادلة: ١١].

والعلم إذا أُطْلِقَ في نصوص الكتاب والسنة وفي أقوال سلف الأمة، فإنه يُعنى به علوم الدين، ولهذا فإن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في كتابه "الأصول الثلاثة" قال في أول الكتاب: "اعلم - رحمك الله- أنه يجبُ علينا تعلُّم أربع مسائل.. قال الأولى: العلم"، ويقصد "العلم وهو معرفة الله".

من العلماء من يُقسم تقسيما آخر، فيقسم العلم إلى قسمين: علم نافع، وعلم ضار.. ومنهم من

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يجعلُ الأقسام ثلاثةً: فيقول: هناك علم لا ضار ولا نافع، ومنهم من يجعله قسمين علوم نافعة وعلوم ضارة، وممن قسَّم هذا التقسيمَ الحافظُ ابن رجب -رحمه الله-، حيث ذَكَرَ في كتابه النفيس "شرح حديث أبي الدرداء في طلب العلم"، يقول الحافظ ابن رجب -رحمه الله- في بيان هذا التقسيم يقول: "قد ذكر الله تعالى في كتابه العلم تارةً في مقام الحمد، وهو العلم النافع، وتارة في مقام الذم وهو العلم الذي ينفع".

ففى العلم المحمود كقوله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [المجادلة : ١١]

ومثل قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤]، وفي مثل قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وفي مثل قوله -عز وجل-: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، فذكر الله العلْم في هذه المواضع في مقامَ الحمد.

أما في مقام الذم، في مثل قوله تعالى ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ ﴾ [الجمعة: ٥].

وأيضًا كما في آيات السحر في قوله -عز وجل-: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، هذا علم ضار، وأيضًا في مثل قوله -عز وجل-: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧]، وفي مثل قوله -عز وجل-: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٧٥]، إلى غير ذلك من الأمثلة التي يذم الله -عز وجل- فيها هذا النوع من العلم. فالحافظ ابن رجب يُقسم العلم إلى علم محمود وعلم مذموم.

ثم قال معلقا على هذا التقسيمِ: "ولهذا جاءت السنة بتقسيم العلم إلى نافع وإلى غير نافع، والاستعاذة من العلم الذي لا ينفع، وسؤال الله العلمَ النافع، ثم استدل بما جاء في صحيح مسلم من حديث زيد بن أرقم أنَّ النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقول: « اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع »؛ إذن هناك نوع من العلوم لا ينفعُ؛ مثل علم السحر، علم الكهانة، علم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الموسيقى، ونحوها من العلوم الضارة.

وأحيانا هناك علوم لا نفْعَ فيها، فيها ضياع للأوقات، فيدخل ذلك في العلم الذي لا ينفعُ، أيضًا العلم الذي لا يعمل به صاحبه، هل ينفعه؟ لا ينفعه، أصبح هذا العلم حجةً عليه، ولهذا النبي -صلى الله عليه وسلم- مثَّلَ «المنافق الذي يقرأ القرآن كمثلِ الريحانة، ريحها طيب وطعْمها مُر»، وأيضًا بين النبي -عليه الصلاة والسلام- في القرآن أنه «حجة لك أو عليك»، فما يكون حجة لصاحبه، متى يكون القرآن حجة لصاحبه؟

إذن، فإن لم ما ينفعه، أصبح هذا العلمُ وبالاً عليه، فالنبي - صلى الله عليه وسلم- يقول: « اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يُستجاب لها »، الشاهد في هذا الحديثِ أن النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- استعاذ بالله من علْم لا ينفعُ، أيضًا استدل بحديث رواه ابن ماجه في سُننه عن جابرِ بن عبد اللهِ -رضي الله عنهما- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: « سلوا الله علما نافعًا، وتعوَّذُوا بالله من علم لا ينفعُ »، فهذا الحديث ظاهر في تقسيم العلم إلى علم نافع وعلم لا ينفع، فأنت تسأل الله عز وجل العلم النافع، وتستعيذ به -عز وجل- من العلم الذي لا ينفع.

ثم استدل أيضًا الحافظ ابن رجب -رحمه الله- بأثر عن الحسن البصري -رحمه الله- أنه قال: العلم علمان -وهذا تقسيم آخر- العلم علمان، علم اللسان فذاك حجة على ابن آدم، وعلم في القلب فذاك العلم النافع، ماذا يقصِد الحسن البصري بهذا التقسيم، يقول العلم علمان علم اللسان، وعلم في القلب، يقصد بعلم اللسان؟ أى {ما لا يعمل به}.

فالذي لا يَعمل بعلمه، فعنده علم ولكن لا يعمل به، لا أثرَ لهذا العلم؛ لا في عبادته، ولا في أخلاقه، ولا في سلوكه، ولا في تعاملاته، كحال من عنده علم باللسان، لكن لا أثرَ لهذا العلم في حياته؛ كحال المنافق، هذا يسمى علم اللسان، وهناك علم في القلب، وهو العلم الذي لا أثرَ في حياة المتعلم.

وعلم في القلب، فذاك العلم النافع، ثم قال ابن رجب -رحمه الله- مُعلقا على هذا القول عن

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الحسن البصري، قال: فالعلم النافع هو ما بَاشَر القلبَ، فأوقر فيه معرفةَ الله، يعني له أثر في حياة المتعلِّم، فأوقر فيه معرفة الله، وعظمته، وخشيته، وإجلاله، وتعظيمه، ومحبته، ومتى سكنت هذه الأشياء في القلب خشع، فخشعت الجوارح تبعا له.

فيُبين - رحمه الله- أن هذا هو العلم النافع الذي يكون له أثر في حياة المتعلم، أثر في قلبه ثم ينعكس هذا الأثر على الجوارح؛ لأن القلب إذا صلح صلحت الجوارح كما جاء في الحديث المتفق عليه.

إذن: هذا التقسيم من الحافظِ ابن عبد البر، ومن الحافظ ابن رجب -رحمهما الله- يُبين طريقةَ العلماء في تقسيم العلوم.

بعد هذا ننتقل إلى العلوم الدينية، وأن العلوم الدينية مراتبُ وأقسامٌ، ولذلك يختلف الحكم فيها بِحَسَبِ مراتبِها، وبِحَسَبِ أقسامها وأنواعها.

ذَكَرَ الحافظ ابن عبد البر في كتابه "جامع بيان العلم" ثلاثة أقسام للعلوم الدينية، فقال -رحمه الله-: "اتفق أهل الإسلام على أن الدين تكون معرفته على ثلاثةِ أقسامٍ"، إذن هو يذكر اتفاق العلماء على أن معرفة الدين تنقسم إلى ثلاثة أقسام.. قال: "أولها: معرفة خاصة الإسلام والإيمان"، لاحظ كلمة "خاصة"؛ يعني بذلك أصولَ وأركانَ وأسسَ الإسلامِ والإيمانِ، فهذا هو القسم الأول من أقسام علوم الدين، معرفة خاصة الإسلام والإيمان، وذلك معرفة التوحيد والإخلاص.

قال: "ولا يُوصِل إلى علْم ذلك إلا بالنبيِّ -عليه الصلاة والسلام- فهو المؤدي عن الله -عز وجل-"؛ يعني هذا العلم لا يمكن أن يَحصَّل إلا عن طريق الوحي، لا يمكن أن يحصَّل عن طريق العقول المجردة، ولا عن طريق النظر والتفكير والحس وغير ذلك، هذا العلم توقيفي.

"ولا يوصل إلى علم ذلك إلا بالنبي - صلى الله عليه وسلم-، فهو المؤدي عن الله، والمبين لمراده، وبما في القرآن من الأمر بالاعتبار في خلق الله بالدلائلِ من آثارِ صِبغته في بَرِيَّتِه على

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

توحيده، وأزليته سبحانه والإقرار والتصديق بكل ما في القرآنِ بملائكة الله وكتبه ورسله"، هذا هو القِسم الأول من أقسام العلوم الشرعيَّة والعلوم الدينيَّة.

هذا النوع بين أهميته ابن القيم -رحمه الله- في كثير من كتبه، وذكر أن هذا النوع من العلوم هو أشرف العلوم وهو أفضل العلوم؛ لأن شرفَ العلم بشرفِ المعلومِ، والمعلوم في هذا العلم هو الخالق -عز وجل-، وما يتعلق بأسمائه وصفاته، وما له من الحقوق على عباده، فهو أشرف العلوم على الإطلاق، ولا نقول: من أشرفِ العلوم، بل نقول: هو أشرفُها على الإطلاق، ولا نقول من أشرفها ؛ لأنه يتعلق بالله -سبحانه وتعالى- بالتوحيد والعقيدة.

فيكون هو أشرفَها على الإطلاق، أما لو قلنا: من أشرفها، فـ "من" هنا تبعيضية والأمر ليس كذلك، بل هذا العلم هو أشرف العلوم على الإطلاق.

بَيَّنَ الحافظ ابن رجب -رحمه الله- في كتابه النفيس "شرح حديث أبي الدرداء" أهمية هذا النوع من العلم، فقال: "فأفضل العلمِ العلمُ باللهِ"، لاحظوا هنا بدون تبعيض، "فأفضل العلمِ العلمُ بالله، وهو العلم بأسمائه وصفاته، وأفعاله التي تُوجب لصاحبها معرفةَ الله وخشيته، ومحبته، وهيبته، وإجلاله، وعظمته، والتبتُّل إليه، والتوكل عليه" قال: "ويتبع ذلك" أي هذا النوع من العلوم "يتبع ذلك العلم بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتفاصيل آخر" أي أصول الإيمان، قال: "والعلم بأوامر الله ونواهيه وشرائعه وأحكامه وما يحبه من عباده من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة -أي أعمال القلوب وأعمال الجوارح- وما يكرهه من عباده من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة" هذا مثَّل لهذا النوع من العلوم الشرعية الذي هو أفضلها على الإطلاق، ثم علق تعليقا جميلا يبين مراتب العلماء في العناية بهذا النوع من العلم، قال: "ومن جمع هذه العلوم - أي أصول الإسلام وأصول الإيمان-، قال: "ومن جمع هذه العلوم من العلماء الربانيين، العلماء بالله والعلماء بأمره" لاحظ هناك علم بالله وعلم بأوامر الله، قال: "وهو أكمل ممن قصر علمه على العلم بالله دون العلم بأمره وبالعكس" لاحظ يمكن نحن نستخلص من كلام ابن رجب -رحمه الله- هذه الأقسام الثلاثة، وأن العلماء ينقسمون إلى ثلاثة أقسام، هناك علماء بالله، يعني أنهم يعنون بأعمال القلوب والرقائق

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والزهد، وهناك علماء بأمر الله، علماء بماذا بأحكام الجوارح الظاهرة، لكن لا عناية لهم بأعمال القلوب، وهناك علماء بالله وأمره، أي علماء بأعمال القلوب وأعمال الجوارح. وهم العلماء الربانيون، ثم يليهم في الدرجة. علماء بأمر الله.

ولهذا لاحظوا هذه العبارة الجميلة من ابن رجب -رحمه الله-: يقول: "هؤلاء هم العلماء الربانيون وهم أكمل ممن قصر علمه على العلم بالله، دون العلم بأمره وبالعكس" يعني أكمل كذلك من المرتبة الثانية، قال: "وشاهد هذا " ثم يضرب لك مثالا، قال: "وشاهد هذا في حال الحسن -يقصد البصري- وابن المسيب والثوري وأحمد وغيرهم من العلماء الربانيين"، يقصد العلماء الربانيين جمعوا ماذا؟ العلم بالله وأمره، العلم بأعمال القلوب وأعمال الجوارح، قال: "وحال مالك بن دينار، والفضيل بن عياض، ومعروف الكرخي، وبشر الحافي، وغيرهم من العارفين"، وهذا المصطلح يقصِدون بالعارفين أي العُبَّاد الزُهَّاد، لهم عناية بالزهد والورع لكن لا عناية لهم بالعلم فأيهما أكمل، حال هؤلاء أم حال أولئك، قال: "فمن قايس الحالين - أي بين العلماء الربانيين وبين العباد والزهاد- قال: "فمن قايس الحالين عرف فضل العلماء بالله وبأمره، على العلماء بالله فقط، فما الظن بتفضيل العلماء بالله وبأمره على العلماء بأمره فقط، فإن هذا واضح لا خفاء فيه" فهو تعليق جميل في بيان مراتب العلماء في العناية بهذا العلم، فالمرتبة الأولى هم الربانيون وهم علماء بالله وبأمره، ثم يليهم العلماء بالله..

هذا التقسيم تابع للقسم الأول الذي ذكره الحافظ ابن عبد البر -رحمه الله-، وهو القسم الأول من أقسام العلوم الشرعية، العلم بخاصة الإيمان والإسلام؛ أي: بأصول الإسلام والإيمان، بأركان الإسلام الخمسة، وأركان الإيمان الستة، هذا هو القسم الأول.

قال الحافظ ابن عبد البر: "والقسم الثاني معرفة مخرج خبر الدين وشرائعه"، لاحظوا دقة العبارة، ماذا يقصد بخبر الدين وشرائعه؟ تأملوا في هذا النص، قال: "القسم الثاني معرفة مخرج خبر الدين وشرائعه".

يقصد بخبر الدين أمور العقيدة، وأصول الإيمان، ويقصد بشرائعه أركان الإسلام، يقصد بهذا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

معرفة مخرج أي مصادر خبر الدين وشرائعه، وطرائق الاستدلال، يعني ما هي مصادر العقيدة؟ وما هي مصادر الشريعة؟ وكيف تستدل على مسائل العقيدة؟ وكيف تستدل على مسائل الشريعة؟ فهذا هو القسم الثاني، معرفة مخرج أي طرق دلائل خبر الدين وشرائعه، الخبر الذي هو مسائل الاعتقاد، وشرائعه التي هي الأحكام الفقهية.

ثم مثَّل لهذا النوع، فقال: "وذلك معرفة النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي شرح الله الدين على لسانه ويدِه، ومعرفة أصحابه الذين أدوا ذلك عنه، ومعرفة الرجال الذين حملوا ذلك عنه، وطبقاتهم، ومعرفة الخبر الذي يقطع العذر لتواتره وظهوره"، فهذا هو النوع الثاني أو المرتبة الثانية من مراتب علوم الدين.

القسم الثالث ذكر الحافظ ابن عبد البر قال : "معرفة السنن، وواجبها وأدبها، وعلم الأحكام"، وهي مرتبة كمالٍ، ومثل لهذا القسمِ الثالث، قال: "يدخلُ في هذا خبرُ الخاصة والعدول، ومعرفته ومعرفة الفريضة من النافلةِ، ومخارج الحقوق والتداعي ومعرفة الإجماع والشذوذ" يعني ما زاد على ذلك من المسائل، فهذه هي المرتبة الثالثة من مراتب علوم الدين..

ثم ذكر عن بعض العلماء أنه قال: ولا يوصل إلى الفقه إلا بمعرفة ذلك وبالله التوفيق، فهذا هو تقسيم الحافظ ابن عبد البر -رحمه الله- لمراتب العلوم الشرعية على هذه الأنواع الثلاثة.

كذلك الخطيب البغدادي -رحمه الله- في كثيرٍ من كتبه خاصة كتاب "الفقيه والمتفقه" وفي أيضًا كتبه الأخرى في طلب العلم أشار إلى هذا الترتيب، يقول الخطيب البغدادي وهو أيضًا ممن عُني بهذا الفن في طلب العلم يقول:

"فواجبٌ على كل أحد طلبُ ما تلزمُه معرفته مما فرضه الله عليه، على حَسَبِ ما يقدر عليه من الاجتهادِ نفسه"، فيُبين أنَّ العلوم الشرعية منها ما هو فرض عين، ومنها ما هو فرض كفاية، ومنها ما هو كمال مستحب، فهناك من الأمور الدينية ما لا بد للمرء منه فيكون فرض عين عليه كأصول الإيمان، وكذلك إذا لزمته الواجبات وبلغ سن التكليف فإنه يجب

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عليه أن يتعلم هذه الأمور.

قال: "فيجبُ على كل مسلمٍ تعلُّم ذلك، وهكذا يجبُ على كل مسلمٍ أن يعرف ما يحل له وما يحرم عليه، من المآكل، والمشارب، والملابس، والفروج، والأموال والدماء، فجميع هذا لا يسع أحدًا جهلُه".

هذا يبين الحكم في هذه المسائل، ثم قال: "وفرض عليهم"؛ أي: على المسلمين "أن يأخذوا في تعلم ذلك حتى يبلغوا الحلم وهم مسلمون، أو حين يسلم بعد بلوغ الحلم ويُجبِر الإمام" يعني المسألة ليست خيارا، بل هي وجوب، قال: "ويجبر الإمام أزواجَ النساء وسادات الإماء على تعليمهنَّ ما ذكرْنا"، فهذه من الحقوق والواجبات؛ أنه واجبٌ على الرجالِ أن يُعلموا من تحت أيديهم من نساء وبنات هذه الأحكام.

وكثير من الناس يفرط في هذا، تجد أنه يُعنى بالمأكل والمشرب والملبس والمسكن، لكنه لا يعنى بالواجبات الدينيَّة، بأحكام الطهارة، وأحكام الصلاة، وهذه من الأمور الواجبة عليك، ولهذا نص العلماء على وُجوب ذلك.

قال: "وفرض على الإمام أن يأخذَ الناس بذلك ويرتب أقوامًا لتعليم الجهَّال"؛ يَعني من واجبات وليِّ الأمر أن يُعنى بتعليمِ الناسِ أُمور دينهم، قال: "ويفرض لهم الرزق في بيت المال، ويجب على العلماء تعليم الجاهل ليتميز له الحق من الباطل" إلى غير ذلك من الكلام النفيس الذي يبين فيه العلماء أن علوم الدين على مراتب منها ما هو فرض عين ومنها ما هو فرض كفايات، ومنها ما كمال مستحب.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

التعريف بالمبادئ العشرة والمقدمات العلمية الأساسية للعلوم :

كان طلب العلم زمن الصحابة رضي الله عنهم اشتغالًا بالقرآن الكريم، والسنة المطهرة حفظا وفهما، بطريقة موسوعية جامعة، فلا تتجاوز الآية الواحدة حتى يتعلم ما فيها من أنواع العلم والعمل معًا، وذلك من غير تمييز بين أنواع المسائل الشرعية أو تفريق بين ألوانها.

ومع مرور الزمان، كثرت المسائل، وتنوعت النوازل، واتسعت البلدان، واختلط اللسان العربي بالأعجمي، وظهرت عجمة في الأفهام نتيجة لعجمة اللسان، واقتضى حسن التعليم، ويسر التلقين، العدول عن تلك الطريقة الموسوعية الجامعة إلى ما هو أيسر وأقصر، فعمد أهل العلم إلى جمل من المسائل العلمية التي تشترك في وحدة موضوعية جامعة، فأفردوها باسم يخصها، وبلقب يميزها عن غيرها من المسائل، فتمايزت بذلك العلوم، وتباينت الفنون في اسمها ورسمها، وعرفوا تلك العلوم بما يضبط مسائلها بطريقين غالبا، إما بذكر الموضوع والمسائل التي يحتويها العلم، وسموا ذلك حدا أو تعريفا، وإما بذكر الفائدة، والثمرة، والغاية من دراسة ذلك العلم، وسموا ذلك رسما، والذي دعا إلى هذا التنويع هو أن فائدة العلم غير موضوعه ومسائله، فكما أن الثمرة ناشئة عن الشجرة وليست عينها، فالفائدة مترتبة وناشئة عن العلم بتلك المسائل وليست عينها أيضا، فصار العلم المتميز بشخصيته عند علماء التدوين هو جملة المسائل المضبوطة بجهة واحدة، موضوعية كانت أو غائية.

ثم إنه جرت عادة المصنفين من المتأخرين أن يدونوا مقدمة عن العلم وفضله وثمراته، وما يتعلق به في صدر مصنفاتهم، وذلك لفوائد منها:

١- أن يحصل طالب العلم بصيرة، وتصورا إجماليا للعلم قبل أن يدخل إلى تفاصيله، فيعرف الوحدة الجامعة لمسائل هذا العلم، فيأمن عندئذ من اشتباه مسائل العلوم عليه، ومن دخوله في مسائل ليس من مسائل العلم الذي عول عليه، وقصد عليه.

٢- أن يتحقق من فائدة العلم ونفعه، لينشط في طلبه وتحصيله، وليستعذب المشاق في

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

سبيله، وليكون عند طلبه هذا العلم النافع المفيد مجتنباً للعبث والجهالة.

ثم إن كثيرا من المتأخرين وضعوا بعد ذلك كتبا في موضوعات العلوم، ومبادئ الفنون، لعل من أجمعها وأشهرها كتاب "مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم"، للشيخ أحمد بن مصطفى المعروف بـ"طاش كبرى زاده"، وكذلك كتاب "ترتيب العلوم" للشيخ محمد بن أبي بكر المرعشي المعروف بـ"ساجقلي زاده"، وغير ذلك من المصنفات.

هذا وقد استقر عمل المصنفين على ذكر مبادئ عشرة لكل علم وفن، تمثل مدخلا تعريفيا لطالب كل علم، وجمع بعضهم هذه المبادئ العشرة في قوله :

إن مبادئ أي علم كانا *** عشر تزيد من درى عرفانا
الحد والواضع ثم الاسم *** والنسبة الموضوع ثم الحكم
وغاية وفضله استمداد *** مسائل بها الهنا يـــــزداد

وقال الشيخ أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى، أبو العباس، المقّرِي، التِّلمساني، المالكي، المؤرخ الأديب المتوفى سنة ١٠٤٠ هـ، وهو صاحب الكتاب القيم المشهور "نفح الطِّيب في غصن الأندلس الرطيب"، قال رحمه الله تعالى وعفا عنا وعنه في منظومته في العقيدة "إضاءة الدُّجُنَّة في اعتقاد أهل السنة" :

مَـــن رامَ فنـاً فلْيُقدّمَ أولا *** علماً بحده وموضوعٍ تـــــــلا
وواضـــعٍ ونِسْبةٍ وما استمدّْ *** منه وفضلِه وحكمٍ يُعتمـــــــدْ
واســـمٍ وما أفادَ والمسائلْ *** فتلك عشرٌ للمُنَى وســـائلْ
وبعضُهم منها على البعض اقتصرْ *** ومَـــن يكنِ يدري جميعَها انتصرْ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وذكر الشيخ الأثيوبي في شرحه للامية الأفعال :

قال الخَضِري في منظومته:

مَبَادِي أَيِّ عِلمٍ كَانَ حَـــــدّ *** وَمَوضُوعٌ و غَايَةٌ مُسْتَمَدُّ
مَسَائِلُ نِسْبَةٌ وَ اسمٌ وَ حُكْمُ *** وفَضْلٌ وَاضِعٌ عَشْرٌ تُعَـدُّ

وقال الشيخ محمد بن علي الصبان، أبو العرفان، المصري، المتوفى في القاهرة سنة ١٢٠٦ هـ وهو صاحب الحاشية على شرح الأشموني في النحو، والحاشية على شرح السعد التفتازاني في المنطق، وله عدة كتب ومنظومات :

إن مبادئ كل علـم عشـــرة *** الحـــد والموضوع ثم الثمـــــرة
ونسبة وفضله والواضـــــــع *** الاسم الاستمداد حكم الشـارع
مسـائل والبعض بالبعض اكتفى *** ومن درى الجميع حاز الشـــرفا

وهذه المبادئ العشر اسم لمجموعة من المعاني، والمعارف يتوقف عليها شروع الطالب والباحث في طلب العلم وتحصيله، وبيانها كالتالي:

١- الحد : ويقصد به التعريف الجامع لمسائل العلم ومباحثه، المانع من دخول غيره فيه.

٢- الموضوع : وهو المجال المحدد الذي يبحث فيه العلم، والجهة التي تتوحد فيها مسائله.

٣- الثمرة أو الغاية : الفائدة التي يحصلها دارس العلم ومتعلمه في الدارين.

٤- النسبة: صلة العلم وعلاقته بغيره من العلوم.

٥- الفضل : ما للعلم من منزلة وشرف وأهمية بين العلوم.

٦- الواضع : أول من ابتدأ التدوين والتصنيف في العلم، ووضع أساسه وأرسى قواعده، كما يشمل تطور التأليف في العلم ومراحله.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٧- الاسم : الألقاب التي أطلقها أهل هذا العلم عليه لتمييزه عن غيره، حتى أصبحت أعلاما عليه.

٨- الاستمداد : الروافد والمصادر والأسباب العلمية التي يستقي منها العلم مسائله ومطالبه.

٩- الحكم: ويقصد به الحكم الشرعي لتعلم هذا العلم من بين الأحكام التكليفية الخمسة.

١٠- المسائل: وهي المطالب التي يبحثها، ويقررها العلم والتي تندرج تحت موضوعه.

وهنا بحمد الله تعالى تم ما أردت من هذه الرسالة وأسأل الله تعالى أن ينتفع بها كل قارئ وقارئة ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وكتبه ،

محمد حسن نور الدين إسماعيل

عفا الله عنه وعن والديه